

الهوية القومية الروسية: بين دعاة الانكفاء و دعاة الانفتاح

أ. لراي علي

المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية.

ملخص:

تتناول هذه الدراسة، بالتحليل، مسألة الهوية القومية في روسيا، انطلاقاً من مقارنة تاريخية تركّز على السجلات المحتملة بين التيارات السياسية الروسية المختلفة، ونقصد بها التيارات التغريبية و التيارات المحافظة على اختلاف مشاربها ومرتكزاتها، حيث يبين دور العوامل الخارجية كالثورات البورجوازية و فلسفة التنوير في بروز التيارات التغريبية المنفتحة على الغرب و دور الحروب و الأزمات في تنامي النزعات المحافظة و المتمركزة عرقياً و قومياً. حيث تأرجحت السياسات القومية الروسية بين الانفتاح على الخارج و الانكفاء على الداخل، و هو ما ظل يشكل قاعدة ثابتة ميّزت القرون الثلاثة الأخيرة من التاريخ السياسي الروسي، فلقد ساد التيار التغريبي في القرن الثامن عشر بفضل إصلاحات بيير الأكبر و كاثرين الثانية بينما ساد التيار القومي المحافظ في القرن التاسع عشر، في حين عرف القرن العشرين ميلاد تجربة سياسية استثنائية قامت على أنقاض ثورة بورجوازية و هي تجربة أممية عالمية، أدّى فشلها إلى عودة الجدل الفكري و السياسي حول هوية الدولة الروسية. الكلمات المفتاحية: القومية الروسية، الأوراسية، السلافية، التيارات المحافظة، الروسية.

Résumé:

Cet article étudie le problème de l'identité nationale russe, basée sur des approches historiques pour comprendre l'influence de différents courants politiques et intellectuels et le rôle des facteurs endogènes et exogènes. Ces facteurs ont engendré, tantôt, des tendances occidentalistes et libérales et tantôt, des tendances conservatrices et ethnocentriques. La gestion du fait national russe oscillait entre ces deux tendances durant les derniers trois siècles, où l'occidentalisme a régné durant le 18^{ème} siècle en raison des réformes libérales lancées par le Tsar Pierre le Grand et la Tsarine Catherine 2. Le courant conservateur lui succéda durant tout le 19^{ème} siècle, et cette fluctuation a continué à distinguer la politique russe au 20^{ème} siècle, jusqu'à aujourd'hui.

Mots-clés : nationalisme russe, eurasianisme, slavianisme, conservatisme, russification.

مقدمة:

ويطرح إشكاليات مستعصية، تتطلب من الباحث العودة للنقاشات الكبرى التي طرحها النخب الفكرية والسياسية الروسية على امتداد القرون الثلاثة الماضية.

بيد أنّ الهدف الرئيس من هذه الدراسة ليس تصنيف التيارات وسرد الأحداث التاريخية بل هو معرفة الدور الوظيفي الذي تلعبه مسائل الهوية في تحديد طبيعة النظم السياسية الروسية منذ بيير الأكبر إلى غاية اليوم، وكيف استطاعت هذه الأنظمة من استغلال الانتماءات القومية للحصول على المشروعية اللازمة للاستمرار في الحكم،

أصبحت مسألة الهوية (*identisnost* باللغة الروسية) لدى الشعب الروسي مسألة تتحدّد بها مكانة الدولة، مصيرها ومستقبلها، وهو أمر يمكن أن يكون مفهوماً، لو أخذنا بعين الاعتبار الخصوصية التي تتميز بها جميع المراحل الانتقالية، أي صعوبة تحديد طبيعة الدولة وتوجهاتها الأساسية، غير أنّ استمرار النقاش العام حول هذه المسألة بعد مرور أكثر من ربع قرن من انهيار الاتحاد السوفييتي وتحوّل روسيا إلى دولة فيدرالية، هو ما يبعث على التعجّب،

(الخصوص) كانت أولى مراحل التحديث واستثمار العلوم والتقنية الأوروبية. ولكن ما يعاب على مشروع التحديث الذي تبناه ببيير الأكبر هو إهماله للعوامل الفكرية والسياسية للحدثة الأوروبية وتركيزه على الشروط المادية (الصناعة الثقيلة، عصنة الإدارة، منظومة المحاسبة، الجندية..الخ). أي أنّ استيراد التقنية الغربية ساهم في توضيح حجم الفارق الثقافي والحضاري الذي يفصل روسيا عن بقية الدول الغربية، وهو ما عزز ظاهرة انهيار (éblouissement) النخبة المتعلّمة الروسية بالحضارة الغربية. وما يدّل على حجم هذا الفارق وحاجة روسيا للعلوم والخبرات التقنية الأوروبية هو سيطرة العلماء والمهندسين الأجانب على المؤسسات العلمية والمصانع الروسية⁽²⁾.

لم تتجاوز إصلاحات ببيير الأكبر مستوى النخب المتعلّمة، ولقيت معارضة حادة من قبل المجتمع والمؤسسات التقليدية (الكنيسة والإقطاع)، فروسيا مجتمع ريفي إقطاعي على العموم اعتبر بعض مظاهر الإصلاح الجديد احتقاراً للثقافة والهوية الروسية، خاصة عندما ارتبطت بمظاهر الحياة الشخصية⁽³⁾. بل إنّها ساهمت في كسر الرؤية الشوفينية الروسية التقليدية التي ترى في روسيا وريثاً للإمبراطورية الرومانية (روما الثالثة) بالرغم من عدم امتلاكها المقومات المادية والثقافية لتحقيق هذا الحلم.

ارتبط تاريخ الملكة كاثرين الثانية (1726- 1796) بعصر الأنوار "Siècle des lumières"، الذي سادت فيه فلسفة التنوير، وهو العصر الذي غرقت فيه أوروبا الغربية أولى إرهاصات النظام الرأسمالي ونشوء البورجوازية الصناعية، وهي أمور لم تكن روسيا قادرة على تجاهلها، سواء بالاعتراض أو القبول. ولأنّ كاثرين الثانية نشأت في غرب أوروبا وتلقّت تربية وتعليم أوروبيين، فإنّ تأثير فلسفة التنوير كان أوضح وأعمق، مقارنة بكلّ ملوك روسيا السابقين، ويشهد على ذلك عشرات المراسلات التي جمعتها مع أشهر مفكري التنوير.

حاولت كاثرين الثانية أن تهب لروسيا منظومة قانونية تتوافق مع مبادئ فلسفة التنوير " قدر الإمكان، من خلال مشاريع لمؤسسات تشريعية تضمّ ممثلي مختلف الطبقات (ما عدا طبقة الأبقان Les serfs) فتمّ صياغة ما تمت تسميته (مشروع المنظومة القانونية الجديد) وهو مشروع

وتحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي، على اعتبار الظواهر القومية هي ظواهر مشحونة بترغبات عاطفية وذاتية طيّعة.

أولاً- معضلة الهوية الروسية: بين التميز والانفتاح.

يعتبر المؤرخ الروسي نيكولاي كارامازين (Nicholai Karamazine 1866-1826) أفضل من عبّر عن معضلة الهوية الروسية بقوله: " لقد أصبحنا مواطنين عالميين عندما تخلينا عن مواطنتنا الروسية، إنّهُ خطأ ببيير"⁽¹⁾ وهو في هذا المقام يقصد إصلاحات القيصر ببيير الأكبر المتأثر بالثقافة الغربية، هذه الإصلاحات التي أعادت صياغة التوجهات السلوكية للنخبة السياسية والفكرية الروسية. ومنذ ذلك الحين اتسع الشرح بين هذه النخب والشعب الروسي الذي حافظ على تقديره واحترامه للتقاليد الروسية.

لم تعرف روسيا نفس المحطّات التي عرفتها أوروبا الغربية (عصر النهضة وعصر التنوير وبدايات الثورة الصناعية) والتي أسّست للمجتمع الحديث، بل إنّها ظلّت مستغرقة في الإقطاع والتسلّط المطلق، ففي الوقت الذي أصبحت فيه المدن الصناعية الأوروبية محور الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وسيطرت البورجوازية الناشئة على السلطة، بعد نجاح الثورات البورجوازية، كان التغيير في روسيا مستعصياً بسبب وجود قوى اجتماعية وسياسية عارضته بقوة. لقد فشلت كلّ محاولات إحلال المعايير الغربية محلّ القيم التقليدية الروسية، بالرغم من أنّ أولى هذه المحاولات تمّت على يد أعظم قياصرة روسيا في العصر الحديث (ببيير الأكبر وكاثرين الثانية). وعليه تصبح العودة للارث الذي خلفه ببيير وكاثرين ضرورة لفهم الصراع الحاصل بين قوى التغيير والانفتاح والقوى المحافظة.

- إرث القيصر ببيير الأكبر وكاثرين الثانية:

إنّ الحديث عن الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التي عرفتها روسيا في فترة ببيير الأكبر (1672 – 1725) وكاثرين الثانية (1729- 1796) هو بالضرورة حديث عن المحاولات الأولى لغربنة المجتمع الروسي وتحديثه من خلال استيراد النظم والتقنية الأوروبية وإحلالها محلّ مثيلاتها الروسية.

يمكننا، من هذا المنطلق، استنتاج أمر أساسي وهو أنّ تحديث وعصنة الجيش الروسي (القوات البحرية على وجه

فبعدما كان يعتقد بكونية أفكار التنوير وتجاوزها للخصوصيات الوطنية " طريق التنوير واحدة بالنسبة لجميع الشعوب" ⁽⁵⁾ تغيرت نظرتة المتفائلة إلى صدمة فكرية عبّرت عنها جملته الشهيرة: " عصر التنوير، لم أعد قادرا على فهمك وإدراكك وسط الدّم والنار" ⁽⁶⁾.

مثلت المرحلة التي تلت الثورة الفرنسية والعقود الأولى من القرن التاسع عشر، قطيعة فكرية مع حالة الانهيار الروسي تجاه فلسفة التنوير الأوروبية، ولم تكن علاقة روسيا بالغرب عبارة عن حوارات وسجلات فقط، إذ أنه لا يمكننا أن نمر مرور الكرام أمام أهم حدث ميّز علاقات روسيا بالغرب وهو الحملة النابليونية لغزو روسيا سنة 1812 أو ما يسمّى الروس بالحرب الوطنية (Guerre patriotique)، والتي كانت لها آثار واضحة على العلاقات بين البلدين، فبعد سنوات طويلة من التحالف السياسي والتناغم الفكري، أصبحت فرنسا تشكّل عدوّا تاريخيا للشعب الروسي، لا يضاهيها في ذلك إلا العدو التركي- العثماني. حيث أفادت الحملة النابليونية القيصر ألكسندر الأول، الذي أصبح في نظر الروس وجميع الشعوب الأوروبية المنقذ والمخلص، وهو ما دفع روسيا للتحالف مع الممالك الرجعية والمشاركة في صياغة المنظومة الدولية الجديدة (مؤتمر فيينا 1815)، كما عدّت هزيمة نابليون سنة 1812 السبب الأول في اندحار الجيش الفرنسي وعودة الملكية ⁽⁷⁾. صاحب هذه الأجواء تصاعد للمشاعر القومية الروسية المعززة بالفخر والاعتزاز بالانتماء إلى الدولة التي استطاعت أن تقهر أكبر حملة عسكرية.

- بروز الهوية القومية الروسية في القرن التاسع عشر:

بيّن المؤرخ البريطاني سيتون-واطسون على نحو جيّد مقدار الاغتراب الذي كان سائدا لدى أفراد العائلة الملكية الروسية، عند اتصالها بأفراد من عموم الشعب- الذي يتكوّن معظمه من الفلاحين الأقنان- فلقد كانت الفرنسية هي لغة القصر الملكي في روسيا في القرن الثامن عشر، أمّا لغة كثير من النبلاء في الأرياف فكانت الألمانية، ولكنّه وفي أعقاب الحملة النابليونية اقترح الكونت سيرغي أوفاروف في تقرير رسمي أن تقوم المملكة على ثلاثة مبادئ هي: الاوتوقراطية (Autocratie) أو سلطة الفرد الواحد، الأورثوذكسية، والقومية ⁽⁸⁾. وإن كان المبدئين الأولين قديمين، فلقد كان المبدأ الثالث جديدا، لأنّه وبحسب سيتون-واطسون لا يمكننا

وضّح المعالم والمعايير الواجب توفّرها في كلّ القوانين العضوية الجديدة، لكنّ الحرب الروسية التركية (1768- 1774) للسيطرة على البحر الأسود والممرات الدولية (البوسفور والدردنيل) والتمرد الذي تزعمه قائد القازاق (Les Cosaques) إميليان بوغاتشيف (Emélian Pougatchev) ما بين سنوات 1773 و1775، لم تمهل كاثرتين الثانية لإتمام إصلاحاتها الاجتماعية والسياسية المتسقة مع فلسفة التنوير، وهو ما يقودنا دائما للعودة إلى نفس الدائرة المفرغة. هذه الدائرة المفرغة أو المعضلة الروسية (Le dilemme russe) كثيرا ما نلاحظها في النقاشات الدائرة حول الهوية الروسية، ما يفسر عدم الاتساق الواضح بين المشاريع السلطوية والنخبوية وبين حقائق الثقافة الشعبية والتقاليد المتجسّدة في القيم والمعايير السلوكية لعموم الشعب، وهو ما ترجمه بامتياز سهيل فرح: " الملاحظ أنّ تشكّل الوعي الجديد لمرحلة جديدة كان سرعان ما يبرز في الوقت الذي لم تتضح مسارات المواصفات الأساسية للمرحلة الماضية ، أي بمعنى آخر أنّ الذين يتوقون لتشكّل وعي جديد ومرحلة جديدة ، كانوا يقدمون على تبني آراء وسلوك طرق معينة لم تنضج الظروف الموضوعية والذاتية من أجل تطبيقها، في الوقت الذي كان يترافق مع إصرار القوى الأخرى المتعسكرة بأفكارها ومثلها القديمة على عدم التسرع لتترك هذه المواقع وللحؤول دون الدخول في صفحات التاريخ المنسية. مثل هكذا حالة قد نرى مثيلا لها في مجمل المسيرات الحضارية عند شعوب الشرق والغرب" ⁽⁴⁾.

ثانيا- الصراع بين التيارات الإصلاحية والثورية والتيارات المحافظة في القرن التاسع عشر:

وبما أنّ روسيا بسياسيتها ونخبها الفكرية أصبحت أقرب إلى الغرب بفضل إصلاحات بيير الأكبر وكاثرتين الثانية، فلقد أصبح للسجلات الفكرية والسياسية التي صاحبت الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورة مضادة تأثير واضح على النخب الروسية. تمثلت في روسيا ببروز تيارات ثورية تقدّمية تؤيد التغيير التي تجسّد في الثورات البورجوازية أو تيارات محافظة تؤمن بفضائل النظام القديم. وهكذا يصبح التشكيك في وجهة الإصلاحات في روسيا منطوقا أكثر، حيث مثّل كارامازين لوحده حجم الاضطراب والتذبذب والتحوّل في القنوات الناجم عن الفوضى التي خلّفتها الثورة الفرنسية،

إلغاء القنانة (Abolition du servage) في الثالث من مارس 1861 من قبل القيصر ألكسندر الثاني.

كان عدد سكان روسيا، عشية إلغاء نظام القنانة، يناهز 60 مليون نسمة، وعدد من يقطنون في الأرياف وفق نظام القنانة (Moujiks) يتجاوز خمسين مليون نسمة، وهو ما يفسر أهمية هذا القرار في التاريخ الروسي، فهو تأسيس لعلاقات جديدة تبتعد عن الممارسات الرجعية للنبال الروسية، ويقرب روسيا من الممارسات والمعايير الأوروبية، إذ أن إلغاء القنانة في بريطانيا كان في 1574 وفي فرنسا في 1789 أما في بروسيا فكان في 1807، فلم يكن من الممكن أن تظل روسيا محافظة على منظومة اجتماعية متخلفة من الناحية السياسية وغير مجدية ومنتجة من الناحية الاقتصادية. غير أنه لا بد أن نشير إلى أن التحرير الكلي للفلاح الروسي (الشعب الروسي) لم يحصل إلا في سنة 1906 أي بعد ثورة 1905 مباشرة، وعلى يد رئيس الحكومة الاصطلاحي بيوتر ستوليبين (1862- 1911) (Piotr Stolypine).

- دروس الثورة الروسية الأولى 1905:

فكما ساهمت الانتصارات العسكرية لروسيا القيصرية في بعث مشاعر الاعتزاز والفخر لدى الشعب الروسي وكانت نهاية الحملة النابليونية وهزيمة الجيش الفرنسي عام 1812 بوقفة للقومية الروسية، التي ساعدت على إضفاء شرعية سياسية للنظام القيصري الذي استطاع أن يوظفها ويوظرها لصالحه، ساهمت الهزائم والأزمات الاقتصادية التي شهدتها روسيا في مستهل القرن العشرين في بعث الهوية القومية، فبعد الهزيمة العسكرية للجيش الروسي في الحرب الروسية-اليابانية سنة 1904 واندلاع الثورة الشعبية سنة 1905، اضطر القيصر نيكولا الثاني إلى استحداث مؤسسات سياسية جديدة، أشهرها البرلمان أو الدوما الممثل لمختلف شعوب وقوميات الإمبراطورية، فلقد أدركت السلطات الروسية حجم الدور الذي لعبته التيارات القومية الانفصالية في إذكاء ثورة 1905، بحيث منحت لممثلي القوميات غير الروسية مئتي مقعد في أول مجلس تشريعي، في حين منحت لممثلي القومية الروسية مئتين وسبعين مقعداً وهي قسمة عادلة نسبياً بمقاييس ذلك العصر، لكن القيصر سرعان ما اتجه إلى تحجيم الحقوق الممنوحة لغير الروس، حيث جاء في البيان الرسمي الصادر في 03 جوان

تصوّر مفهوم واضح للقومية في دولة لا يزال فيها نصف "الأمة" أقباناً⁽⁹⁾، لا يختلف وضعهم كثيراً عن طبقة العبيد.

يسمح لنا تفكيك المبادئ الثلاثة التي وضعها أوفاروف من استنتاج وظائفها السياسية، فالمبادئ المطروحة ما هي إلا تكريس للتصوّر السلطوي للعلاقة التي ينبغي أن تربط الشعب بالحاكم وهي علاقة الطاعة والولاء والوفاء، فالملوك الروس حافظوا، على مر التاريخ الروسي على تصوّر أبوي (Paternaliste) يجعل من الحاكم وصياً والشعب قاصراً. وعند التدقيق في هذه المبادئ لا نجدتها تختلف بأي شيء عن النداء الرّسّي الذي يردده الجنود الروس عند بداية كلّ معركة: "من أجل الدين، القيصر والوطن" فالدين متمثلاً في المذهب الأرثوذكسي، والقيصر باعتباره جوهر السلطة والوطن باعتباره جامع شمل الشعب الروسي.

اعتبر بعض المفكرين الروس، ومنهم الأوراسيون، في فترات لاحقة أنّ المبدأ الأوفاروفي، هو أقرب إلى الشعار المثالي منه إلى المضمون الواقعي للحياة السياسية والبناء الاجتماعي⁽¹⁰⁾، فالأورثوذكسية الروسية كانت في هذه الفترة، قد ابتعدت عن بعدها الرسالي (روما الثالثة أو روسيا المقدسة) فهذه الصفحة قد طوتها السياسة العلمانية التي بدأت في عهد بيير الأكبر واستمرت في عهد كاترين الثانية. كما ضيّع الحكم المطلق معناه عندما تراجع عن دوره الروحي (حراسة الدين)⁽¹¹⁾، أما المستوى الثالث وهو القومية فلقد كانت شعاراً يخضع لاعتبارات دعائية وتعبوية أكثر من خضوعه للواقع، المتمثل في وجود شعب بعيد كلّ البعد عن الرهانات السلطوية والسجلات الفكرية التي انتشرت في تلك الفترة بين التيار التغريبي والتيار السلافيفي (Slavophiles)⁽¹²⁾ المتأثر بنظرية الفولك (VOLKSGEIST) الألمانية⁽¹³⁾.

لا يمكن فصل ما يحدث في روسيا عن التحولات التي عاشتها أوروبا في القرن التاسع عشر، الذي يعتبر قرن أو عصر صناعة الأمم بامتياز، كما يرى مؤرخ القومية البريطاني إريك هوبسباوم (Eric Hobsbawm)⁽¹⁴⁾، فأمام نموّ التيارات القومية في الأقاليم المجاورة لروسيا، اقتنعت النخب السياسية الحاكمة في روسيا أنّه لم يعد ممكناً أن تحتفظ روسيا بنفس النظرة الدونية للشعب الروسي، بينما بقيّة الأمم تقوم بإعادة كتابة تاريخها واستعادة رموز ذاكرتها الوطنية وتمجيد بطولات شعوبها وسعها نحو التحرّر، وهذا ما يفسّر

للامبريالية. دون أي تنازلات أمام الأيديولوجيات القومية. فكان يرى التأييد لحق الأمم في تقرير المصير أداةً لخلق الوحدة الأممية للطبقة العاملة وليس لتدميرها. وكان لينين حذرا في التمييز بين مهام الثوريين في الدول المضطربة والدول التي تعاني من الاضطهاد.

ثالثا- التجربة السوفييتية وعودة الشوفيينية الروسية:

أراد فلاديمير لينين أن تكون الدولة الجديدة (اتحاد الجمهوريات السوفييتية) محترمة- قدر الإمكان- لمبدأ المساواة بين الشعوب والقوميات، حتى يمنع بروز التيارات الانفصالية، لكن جوزيف ستالين وبالرغم من تبنيه لخطاب أممي (Internationaliste)، إلا أن سياسته كانت قومية صرفة، من خلال سيطرة العنصر الروسي على مختلف المناصب السياسية والإدارية، على حساب القوميات الأخرى.

إن أوضح مظاهر الروسية (Russification)، بعد روسنة الإدارة وأجهزة الدولة كان روسنة الثقافة والتعليم من خلال فرض اللغة الروسية على جميع شعوب الاتحاد، لتصبح اللغة الوحيدة التي يمكن للمواطنين السوفييت التواصل بها فيما بينهم، بينما لا يتم استعمال اللغات المحلية إلا داخل الجمهوريات، وكان من بين الانتقادات التي وجهها خروتشيف، تلك المرتبطة بالسياسة القومية الستالينية المخالفة لجوهر ومضمون السياسة القومية التي رسمها لينين مع بداية المشروع السوفييتي. ولهذا فلقد ساد اعتقاد كبير أن السياسة القومية الجديدة وعلى رأسها السياسة اللغوية -باعتبارها المقياس والمعايير لتوجهات السياسة القومية- ستتركز على نفس المبدأ الذي أقره لينين وهو المساواة اللغوية ورفض مبدأ الشوفيينية الروسية (Chauvinisme Grand-Russe). ولهذا تقتضي الضرورة إجراء مطابقة بين الخطاب الذي يدعول للعودة إلى الفكرة الماركسية- اللينينية والسياسة اللغوية الجديدة⁽¹⁹⁾.

لم تختلف توجهات وأهداف السياسة اللغوية عند خروتشيف عن الفترة التي سبقتها، فتصور خروتشيف لمستقبل الاتحاد والمشروع السوفييتي هو نفس التصور الستاليني ولكن بأدوات وأساليب أقل عنفا، فخرتوشيف ظل معتقدا أن مطالب القوميات تعبر دائما عن اتجاهات معارضة للمشروع السوفييتي⁽²⁰⁾. كان خروتشيف يرى أن السياسة القومية السوفييتية موجهة لجميع الأمم

1907 أن " مجلس الدوما الذي جاء لتقوية الدولة الروسية، لا بد أن يقوم على الروح الروسية"⁽¹⁵⁾ كما أن شكل الدولة كان وحدويا وغير قابل للتجزئة واللغة الروسية هي اللغة الرسمية الوحيدة. انتهى مسار هذه الإصلاحات التي كانت تتراوح بين محاولات التجديد والعودة إلى الممارسات الرجعية بوفاة رئيس الحكومة بيوتر ستوليبين سنة 1911، لكن شعوب الإمبراطورية ونخبها الفكرية والسياسية لم تكن بمعزل عن ما يجري في دول الجوار.

أدرك فلاديمير لينين من خلال تجربته الطويلة في معارضة النظام الحاكم ومعايشته للتجارب السياسية في منفاه الأوروبي، أن فهم المسألة القومية والقدرة على تسييرها شرطان أساسيان لنجاح الثورة الشيوعية، وأن الوقوف مع مطالب الحركات القومية ضروري لاستمالة العمال في الأقاليم المستعمرة وهو ما دعاه إلى استخدام مصطلح " سجن الشعوب" لتوصيف روسيا القيصرية بل حارب النزعات الاستعلائية الروسية لدى بعض المناضلين الروس أو غير الروس داخل الحزب الاجتماعي الديمقراطي وسماه بشوفيينية الروس الكبار (Chauvinisme Grand Russe)⁽¹⁶⁾. حيث كتب لينين: " سنحاول بدورنا نحن الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس أن نحدد موقفنا من هذا التيار الفكري. بالنسبة لنا، نحن ممثلي الأمة السائدة في الشرق الأقصى الأوروبي وقسم كبير من آسيا لا يجدر بنا أن ننسى الأهمية العظمى التي تتعلق بالمسألة القومية - لا سيما في بلد يعتبر بحق "سجن الشعوب" - في وقت تبعث فيه الرأسمالية الحياة والوعي لدى مجموعة من الأمم "الجديدة" الكبيرة والصغيرة، وذلك في أقصى شرقي أوروبا وفي آسيا على وجه الدقة. في وقت جندت فيه الملكية القيصرية الملايين من الروس والقوميات الأخرى لتحل مجموعة من المسائل القومية طبقا لمصالح مجلس طبقة النبلاء الموحدة"⁽¹⁷⁾.

وهنا تبرز قدرة مزاجية لينين بين النظرية والواقع الذي يرى أنه من الأجدر بالماركسيين الثوريين أن يدركوا جيدا حقيقة اللحظة التاريخية وأن لا ينساقوا وراء دعوات لا تعترف بقوة العامل القومي وإمكانيات توظيفه⁽¹⁸⁾ وبالنسبة للينين ستتطور في زمن الإمبريالية انفجارات اجتماعية عميقة تأخذ أحيانا أشكالا قومية وتتطور في اتجاه معاد

لن ينجح دون كسب تأييد جموع الشعب فأتبعه سياسة الغلاسنوست أو المكاشفة والشفافية والتي تقتضي قدرا كبيرا من الحريات، أولها حرية الصحافة والتعبير، وذلك بعد عقود طويلة من الركود والجمود الذي مس جميع المجالات والمستويات وتفاقم في مرحلة الرئيس ليونيد بريجنيف، بيد أن وقع هذه الإصلاحات كان أكبر في أطراف الإمبراطورية مقارنة بمركزها أي روسيا، ولم تكن النتيجة المرجوة هي دعم سياسات غورباتشيف، بل فتحت الباب على مصراعيه لبروز المطالب المختلفة، ابتداء بمسائل البيئة ووصولاً إلى المطالب القومية الانفصالية. وتفاجأ غورباتشيف أكثر عندما لاحظ أنه حتى الروس فقدوا الرغبة في العيش المشترك مع بقية شعوب الاتحاد، بل إن الكثير من مفكري روسيا كانوا يعتقدون أن الاتحاد كان سببا في تعطل التنمية ورتقي الشعب الروسي، وكان على رأس هؤلاء المنشق السوفييتي السابق والحاصل على جائزة نوبل للسلام ألكسندر سولجنستين، وهو ما مهد لانهايار الاتحاد السوفييتي وميلاد روسيا الفيدرالية.

رابعا- توظيف الهوية القومية (فترة التسعين وبوتين):

لقد كان صعود بوريس إلتسين إلى سدة الحكم فرصة للتيار التغريبي للاستئثار بالمناصب السياسية والمواقع الاقتصادية العليا، وإيدانا بتوجه الدولة نحو الإصلاحات الاقتصادية الليبرالية المتطرفة (العلاج بالصدمة) وانتهاج سياسة خارجية جديدة متحركة للإرث السوفييتي ومستسلمة للمصالح الغربية. وأمام حالة التفسخ والانحلال الذي عرفه المجتمع الروسي بسبب فقدانه للمعايير القديمة وصعوبة التكيف مع متطلبات المرحلة الجديدة التي فشل فيها النظام السياسي فشلا ذريعا - فشل السياسات الاقتصادية، وظهر النزعات الانفصالية التي كانت الحرب الشيشانية أبرز مظاهرها- برزت التيارات المحافظة لملا هذا الفراغ، ونخص بالذكر، التيار القومي الشيوعي بقيادة جينادي زيوغانوف (Guennadi Ziouganov)⁽²⁵⁾ والتيار القومي المتطرف بزعامة فلاديمير جيرينوفسكي Vladimir Jirinovski الذي أصبح حزبه يمثل قاعدة انتخابية لا يستهان بها.

أدرك إلتسين، أمام تصاعد التيارات القومية المحافظة، أن التوجهات التغريبية لم تعد قادرة على الصمود أمام النزعات القومية المحافظة، وهو ما اضطره إلى تعديل سياساته الداخلية والخارجية، وظهر ذلك جليا من خلال استبعاده

السوفييتية دون استثناء وأن انطلاق الاتحاد السوفييتي في هذه السياسة التي سمّاها خروتشيف "بناء الشيوعية" ستكون تمهيدا لبروز مجتمع جديد سماه "الجماعة التاريخية الجديدة" تسمو وتتجاوز الانتماءات القومية والعرقية. ولتحقيق ذلك لا بد من تشجيع الأمم السوفييتية على التقارب وهذا التقارب سيؤدي تدريجيا للوصول إلى المبتغى وهو الانصهار بيد أن تأكيده على تفوق اللغة الروسية والدور الريادي للشعب الروسي (الأخ الأكبر) نزع من الخطاب السوفييتي محتواه الأممي، لتصبح الروسية مرادفا للسفيتية (Soviétisation)⁽²¹⁾.

بينما كان بريجنيف يعتقد أن "الجماعة التاريخية الجديدة" قد تحققت بالفعل، وبالتالي فإنه لم تعد هناك حاجة للحديث عن المسار والتدرج في تعميم اللغة الروسية. فعبارة "الجماعة التاريخية الجديدة" قد تم صياغتها في ديباجة الدستور السوفييتي لسنة 1977. وظهر ذلك بجلاء بعد خطاب بريجنيف الذي ألقاه في المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي حيث ورد في الخطاب: "إن الاتحاد السوفييتي جماعة بشرية جديدة تشترك في إقليم، دولة، نظام اقتصادي، ثقافة مشتركة، نفس الطموح في بناء الشيوعية ولغة مشتركة"⁽²²⁾. وبالرغم من أن بريجنيف قد تحدث في خطابه عن النظرة للخصوصيات القومية بعين الاعتبار إلا أن تركيزه كان واضحا على الطابع الأممي للاتحاد حيث أكد على ضرورة تربية العمال وفق روح الأممية الاشتراكية وكذلك التأكيد على التناغم والتجانس الذي أصبح يطبع الشعب السوفييتي، وهو ما جعل كل الخبراء يتحدثون عن درجة كل أشكال الهويات القومية والعرقية إلى مستويات ثانوية⁽²³⁾. لكن المفارقة هو أن الخطاب الذي كان يحط من مكانة الهوية القومية لم يشمل القومية الروسية أو الشعب الروسي، فاستعمال مصطلح القومية عادة كان مقتصرًا على الشعوب غير الروسية، والخطاب الرسمي أصبح حافلا بعبارات التمجيد والتقديس للشعب الروسي دون سواه من الشعوب، حيث طفت إلى السطح عبارة "الشعب الروسي العظيم" مرفوقة في الكثير من الأحيان بصفات التفضيل والتفخيم كصاحب الدور المشهود أو "صاحب المميزات الرفيعة"⁽²⁴⁾.

استهل ميخائيل غورباتشيف فترته الرئاسية بمشروع البريسترويكا (إعادة الهيكلة)، لكنه أدرك أن مشروعه هذا

جورجيا، التحول الذي عرفته السياسة الأمنية الجديدة، وكيفية استغلالها للصراعات العرقية القديمة لتحقيق المصالح الروسية والتجاوب مع التحديات التي فشل نظام إلتسين في تسييرها⁽²⁷⁾.

خاتمة :

تناول هذه البحث موضوع الهوية القومية الروسية من زاوية سياسية متجنية - قدر الإمكان- البعد الأنثروبولوجي والاثنولوجي لمواضيع الهوية، إذ أن الهدف المرجو هو دراسة المتغير السياسي والاجتماعي، على اعتبار الهوية القومية ليست ظاهرة طبيعية وثقافية فقط بل هي بناء اجتماعي وسياسي واع.

تميّزت روسيا عن غيرها من الدول، بوجود تيارات سياسية وجيوسياسية متعددة، اختلفت في تحديد طبيعة ودور الدولة الروسية، وتبلور هذا الاختلاف بسبب شساعة إقليم الدولة وبسبب تعدد العناصر المكونة له، فالتاريخ الروسي لا يشبه تاريخ الأمم الأخرى بتاتا، فهو تاريخ معقد عرف تحولات دراماتيكية في مختلف محطاته، وفي هذا الصدد يشير المفكر الروسي المعروف بردييف بأن "تاريخ الشعب الروسي تاريخ غير سعيد، يتصف بالمعاناة الدائمة. لقد تطور بشكل كارثي، عبر الخضات والتغيرات في الأنماط الحضارية"⁽²⁸⁾.

يعود الاختلاف الحاصل بين التيارات التغريبية والتيارات المحافظة، إلى وجود تمايز واضح في تقييم وتقدير القيم والمعايير الروسية، فبينما أفرط المحافظون في تقدير التاريخ والثقافة الروسية، كان التغريبون يعتقدون أنّ خلاص روسيا يكمن في انفتاحها على القيم الغربية والتخلي عن الثقافة والتقاليد الروسية. وظلّ هذا السجال متواصلا طوال القرون الثلاثة الأخيرة.

خلاصة القول أنّ استدعاء الهوية القومية الروسية، هو الذي سمح لروسيا أن تواجه مختلف التحديات الداخلية والخارجية، ابتداء من الحملة النابليونية، وحرب القرم، والغزو الهتلري وحركات التمرد الانفصالية، كما أنها هي التي سمحت للنظام السياسي أن يحقق الإجماع الوطني الضروري لمواجهة الرهانات الآتية والمستقبلية. وهنا يظهر الدور الوظيفي للانتماء القومي وتظهر طرق استغلاله سلبا أو إيجابا.

للعناصر اللبرالية واستقدامه للمحافظين، وعلى رأسهم السياسي المخضرم إيفغيني بريماكوف Evgueni Primakov الذي تولى وزارة الخارجية سنة 1996 ورئاسة الحكومة سنة 1998. فلقد كان تراجع إلتسين عن طروحاته السابقة دليل على غياب بدائل سياسية قادرة على خلق إجماع وطني وإعادة الاعتبار لروسيا على المستوى الخارجي، وهو ما أدركته القوى المحافظة والقومية، أي أنّها استطاعت أن تفهم وتقدر متطلبات المرحلة الراهنة، ليس على المستوى المادي، فحسب، بل على المستوى الروحي والمعنوي بدرجة أكبر، فروسيا وريثة لإمبراطورية مترامية الأطراف لا يمكنها أن تتنكر لماضيها وميراثها السياسي كقوة عظمى سابقة.

لقد استطاع فلاديمير بوتين أن يشكل تصورا واضحا للظروف الداخلية التي عرفتها روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي من جهة، وللمحيط الدولي ومقتضياته من جهة أخرى. فلا يمكن تصور روسيا قوية ومستقرة، حسب بوتين، دون استعادة الشعب الروسي للتقدير الذاتي الذي ضعف بسبب سياسات غورباتشيف وبوريس إلتسين السابقة، وهو ما استلزم بصفة طارئة القضاء على النزعات الانفصالية، وبالأخص الحركة الانفصالية الشيشانية، التي مثلت أكبر إهانة للمشاعر القومية الروسية، ولهذا السبب لم يكن الروس مهتمين بالانتقادات الموجهة للجيش الروسي الذي أفرط في استعمال القوة دون مراعاة لحياة المدنيين العزل⁽²⁶⁾.

أفرزت المرحلة الجديدة جملة من المفاهيم، المعبرة عن الاتجاهات الجديدة للمسألة القومية ولعل، أهمها على الإطلاق مفهوم "العالم الروسي" Russkii Mir " مع العلم أن كلمة روسكي باللغة الروسية تعني الروسي بالمعنى العرقي (Russe ethnique) بينما الروسي بدلالة المواطنة المدنية فتكتب (Rossijskij). وهذا ان دلّ على شيء فإنما يدل على أن الروس أخذوا يتراجعون عن المفهوم المدني ويدخلون في تصور جديد يحمل دلالات اثنوثقافية، كما أنّ الخطاب السياسي أصبح يطلق تسمية " أبناء البلد Compatriotes " على الروس القاطنين في دول الجوار، ولم يعد يتردد في وصفهم في بعض الأحيان بروس الشتات (Diaspora Russe) كما أن العقيدة الأمنية أصبحت تضع في عين الاعتبار حماية الأقليات الروسية. ولقد بينت الأزمة الجيورجية سنة 2008 وتدخل الروس لمساعدة الأوسيت والأبخاز في الانفصال عن

الهوامش :

Johanne Gottlieb Ficht هو الذي أعطاه مدلوله المرتبط بالقومية

الرومانسية الألمانية.

¹⁴ Eric Hobsbawm, *Nations et nationalisms depuis 1780*, Paris, Gallimard, 1992, p.52.

¹⁵ Hélène Carrère d'Encausse, *L'Empire d'Eurasie*, Paris, Fayard, 2008, p.190.

¹⁶ في الفترة القيصرية كان يطلق على الروس، تسمية الروس الكبار (grand-russien بالفرنسية أو Velikoros بالروسية) وعلى الأوكرانيين تسمية الروس الغار (Moloros, Petit-Russien) والبيلوروس أي الروس البيض (Belorus, Blanc-Russien) وفي الفترة السوفييتية تمّ الانتهاء من التعامل بالأوليين و بقيت الثالثة لأنها لا تحمل دلالة استعلائية أو احتقارية. لأنّ الأوكران كانوا يرون أنّ تسميتهم بالروس الصغار انتقاص لمكانتهم أمام الروس الكبار، وهو ما أصبح يسبّي فيما بعد بفكرة الأخ الأكبر. (في هذا المقام أنظر المقالة الشارحة لهذه المصطلحات لصاحبها: Wladimir Wolof.

www.universalis.fr/encyclopedie/grand-russien

¹⁷ Vladimir Lénine, *"La révolution socialiste et le droit des nations à disposer d'elles-mêmes"*,

(www.marxists.org/francais/works/1916/19160100.htm).

(consulté le 12/5/2013).

¹⁸ V. Lénine, *Du droit des nations à disposer d'elles-mêmes*, Moscou, Les éditions du progrès, 1981, p.36.

¹⁹ Graham Smith, "The Soviet state and the nationalities policies", in Graham smith (ed.), *The Nationalities Questions in The Post-Soviet States*, Harlow, Essex: Longman, 1996, p.8-9.

²⁰ Ibid., p.12.

²¹ Ibid., p.10.

²² Ibid., p.11.

²³ Andréa Khylya Hemour, *"La politique linguistique soviétique de l'URSS (1917-1991)"*, www.dumas-cnrs.fr/dumas (consulté le 12/10/2017).

²⁴ Michael Kirkwood, *op.cit.*, p.65.

²⁵ تحسّل Ziouganov على نسبة 40.3% في الدور الثاني من الانتخابات الرئاسية الروسية التي أجريت سنة 1996 التي نافس فيها الرئيس بوريس يلتسين.

²⁶ أصبحت الطريقة التي قضى بها بوتين على التمرد في بلاد الشيشان، تسمّى الطريقة الشيشانية، وهي نفس الطريقة التي تستعمل في مناطق أخرى لمحاربة الحركات المسلحة المتمردة والقضاء عليها دون الأخذ بعين الاعتبار القوانين والمواثيق الدولية المنظمة للحرب.

²⁷ Jeffrey Mankoff, *Russian Foreign Policy: The return of Great Power Politics*, Maryland, Rowman and Littlefield Publishers, 2012, p.230.

²⁸ سهيل فرح، الحضارة الروسية، أسئلة المعنى والمصير، مرجع سبق ذكره، ص.10.

¹ Michel Niqueux, *L'Occident vu de Russie, Anthologie de la pensée russe, de Karamzine à Poutine*, Paris, Institut Des études slaves, 2017, p.11.

² و ما يدلّ على حجم هذا الفارق وحاجة روسيا للعلوم والخبرات التقنية الأوروبية هو أنّ معظم أعضاء أكاديمية العلوم الروسية كانوا ألمانا، ولم يتمّ ترويسها بصورة نسبية إلا بعد مرور أكثر من نصف قرن من تأسيسها. تأسست الأكاديمية الروسية للعلوم سنة 1924 وكان العالم الألماني Laurentius Blümentrost (1755 - 1692). أول من ترأسها.

³ ببيير الأكبر سنّ قانونا سنة 1699 يفرض خلق اللّحي على الروس وأمام اشتداد حجم المعارضة لهذا القانون عوّضه بقانون آخر سنة 1704 يسمح فيه فقط لمن يدفع ضريبة مقابلة إعفاء لحيته، وهو قانون تزامن مع إجراءات أخرى تمنع ارتداء الرّزي التقليدي الروسي (Caftan russe)

⁴ سهيل فرح، الحضارة الروسية : مدخل إلى أسئلة المعنى والمصير، بيروت، الدار العربية للنشر، 2011، ص.13.

⁵ Michel Niqueux, , op.cit, p.12.

⁶ Ibid.p.14.

⁷ عودة الملكية أو La restauration كما يستمها الفرنسيون جاءت بعد إجبار نابليون على التخلّي عن الحكم وصعود لويس الثامن عشر (شقيق لويس السادس عشر) إلى سدة الملك سنة 1814.

⁸ Hugh, Seton-watson, *Nations and States, An Enquiry into the Origins of Nations and the politics of Nationalism*, Boulder, Westview Press, 1997, p.250.

⁹ Ibid.p.256.

¹⁰ ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا: مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ترجمة: عماد حاتم، بيروت، دار الكتب الجديدة المتحدة، 2004، ص.252.

¹¹ المرجع نفسه، نفس الصفحة.

¹² التيار السلافياوي هو تيار فكري روسي ظهر في القرن التاسع عشر متأثرا بمنطلقات تيار القومية الرومانسي الألماني، أي الانطلاق من رؤية ذاتية للهوية الروسية، فحسب هذا التيار لا بد لروسيا أن تتخذ طريقها الخاص وإحداث قطيعة مع الإرث الذي تركه ببيير الأكبر وكاثرتين الثانية، فروسيا وحدة مستقلة عن الغرب وثقافتها متميّزة، وهذه الثقافة ترتكز على مقوّمات الدّين والروح القومية الروسية، مع إعادة اعتبار لقيم المجتمع الروسي، عاداته وتقاليده، التي كانت محلّ احتقار وانتقاد من قبل التيار التغريبي. بل إنّ السلافي

¹³ Volksgeist كلمة ألمانية مركبة من Volk أي الشعب وgeist وتعني الروح، ليصبح المعنى "روح الشعب" أو "عبقريّة الشعب" يعتبر الفيلسوف الألماني Herder أول من صاغ هذه الكلمة ردّا على المفهوم التنويري للشعب الذي وضعه مونسكيو في كتابه روح القوانين، لكنّ